الفضل بن الربيع

للدكتور فاروق عمر فوزي
قسم التاريخ/ كلية الاداب

في كنف والده :

ليس هناك من شك بأن الفضل عاش حياة مرفهة تختلف، عن تلك الحياة القاسية التي عاشها ابوه الربيع بن يونس بن محمد بن ابي فروة في سني حياته الاولى . فالروايات[١] التاريخية تجمع على ان اصله غامض ونسبه مختلف عليه . فمنها مايذهب الى ان الربيع كان لقيطا حيث قال له احدهم في مجلس المنصور جوابا على تعليق له : (انك معذور في ذلك لانك لم تذق حلاوة الاباء).[٢] وقد ناداه عبد الله بن عياش المنتوف في احدى المناسبات قائلا : (ياشبه عيسى بن مريم ...)[٣] والراجح انه كان عبدا ليونس بن محمد من جارية بالمدينة ابتاعه زياد بن عبدالله الحارثي ثم اهداه الى الخليفة ابي العباس .

وفي عهد المنصور العباسي استطاع الربيع ان يتقرب اكثر الى الخليفة ، فاصبح في معية ياسر صاحب وضوء الخليفة ثم انتقل للعمل مع ابي الخصيب الحاجب حتى تقلد هو منصب الحجابة للخليفةوهكذا وبعد حياة شاقة متدرجة استطاع الربيع ان يكون احد الشخصيات الرئيسية في البلاط العباسي يظهر دوما الى جانب الخنيفة ويجيب على اسئلة المنصور واستفساراته وينفذ اوامره وتعليماته ولاشك فأن المنصور اعجب به لخفته وذكائه فاعتقه[٤] .

ولم يقف طموح الربيع بن يونس عند هذا الحد[٥] ، فبعد سقوط وزارة ابي ايوب المورياني حيث كان دور الربيع بارزا في سقوط السورياني ، قلد المنصور الربيع مولاه (نفقاته والعرض عليه)[٦] ، اضافة الى وظيفة الحاجب • ان رواية الجهشياري انفة الذكر يؤيدها الطبري[٧] لاتشير الى ان الربيع تقلدا الوزارة للمنصور • ولكن الجهشياري نفسه يعود فيقول بان المنصور قال للربيع :

« وقد وليتك الوزارة والعرض ووليت ابنك الفضل الحجابة »[٨]

وقد ايد رؤية الجهشياري هذه المسعودي والخطيب البغدادي وابن الطقطقي وابن خلكان[٩] على اننا نرى بان الصلاحيات الخاصة بنفقات البلاط كانت محدودة ، كما وان (العرض) كان يعني تقديم العرائض والالتماسات للخليفة ومسؤولياتها محدودة ايضا • ومما يضعف الرواية اكثر ورود اسم الفضل فيها والمعروف ان هذا الاخير لم يظهر دوره بارزا في المناصب الرسمية الا في عهد المهدي وعلى هذا فاغلب الظن ان لقب (وزير) لم يعط للربيع ، حتى لو صدقنا رواية الجهشياري فان لقب الوزير الذي منحه الخليفة لايدل على منصب رسمي بقدر مايدل على مرتبة فخرية خاصة بالبلاط اعلى من مرتبة الحاجب ، فلم تكن صلاحيات الربيع لتتجاوز نفقات البلاط والعرض اضافة الى مشورة الخليفة باعتباره (مولاه) وأحد صحابته المقربين •

ان هذا التفسير يتمشى تماما مع طبيعة المنصور التي قال عنها ابن الطقطقي :[١٠]

(لم تكن الوزارة في ايامه لاستبداده واستغنائه برأيه وكفائته مع انه كان يشاور في الامور دائما • وانما كانت هيبته تصغر لها هيبة الوزارة)

وقد قال الربيع عن المنصور انـه :

(كان يرى باطن الامور بمرآة من الرأي كما يرى ظاهرها[11]) فالمنصور ، في اعتقادنا ، لم يتخذ وزيرا بالمعنى المتعارف عليه واذاكان قد لقب الربيع او غيره بهذا اللقب فانه لم يعطه واجبات الوزيـر الادارية والسياسية المهمة انما باشر الامور بنفسه يساعده في ذلك كبار مستشاريه وصحابتـه .

وحين شب الفضل في كنف والده الربيع عمل هذا على تقريبـه للبلاط العباسي فتشير رواية في الجهشياري ان المنصور سأل الربيـع عن حاجته فقـال :

(حاجتي ياأمير المؤمنين ان تحب ابني الفضل . قال : ويحـك ان المحبة لاتقع ابتداءا وانما تقع باسباب . قال الربيع قد اوجدك الله السبيل اليها قال وماذاك ؟ قال : تنعم عليه فاذا انعمت عليه احبـك فاذا احبك احببته ...)[12]

ومن الواضح ان المنصور وثق بالربيع بن يونس فاعتمد عليـه بسبب كفاءته ، تشير رواية ان الربيع (كان حازما عاقلا فطنا خبيرا بالحساب والاعمال حاذقا بامور الملك)[13] فقدكان الربيـع الـى جانب المنصور يوم تمرد الراوندية في هاشميه الكوفة ماسكا بزمـام دابة الخليفة لايفارقها حتى اخذها منه معن بن زائدة الشيباني بأمـر الخليفة[14] . وكان الربيع احد الذين اختارهم الخليفة للاشراف على تخطيط العاصمة الجديدة بغداد وبنائها[15] . على ان اهم دور سياسي لعبه الربيع في هذه الفترة هو موقفه الحاسم في امر البيعة للمهدي فقد كان الطامعون يتربصون موت الخليفة في طريق الحج سنة ١٥٨ هـ ـ سنة ٧٧٥ م ولكن الربيع اوهمهم بان المنصور لايزال حي يرزق وانـه يطلب منهم توكيد البيعة لولي عهده المهدي فبايع الجميع للمهدي ثم اعلن الربيع موت المنصور واشرف على دفنه[16] .

واستمر دور الربيع في خلافة المهدي حين عين حاجبا ، ولعـب

دورا مهما في تعيين الوزراء واسقاطهم فقد اسقط وزارة ابي عبيد اللهمعاوية بن يسار بسبب سوء علاقته به متهما ابنه بالزندقة ، وقدم يعقوب بن داود الى مرتبة الوزارة • ولعل منصب الوزارة بدء يأخذ شكلا متبلورا وتتضح معالمه حيث يمكن القول بان يعقوب بن داود كان اول وزير تشير مصادرنا التاريخية الى اتخاذه هذا اللقب بصورة رسمية •[17]

ان تعاظم اثر الربيع في السياسة والادارة في عهد المهدي ناجم، في اعتقادنا ، من ازدياد اهمية الموالي في بلاط المهدي • وفي روايه تاريخية[18] ان عبدالصمد بن علي عم المهدي حذره من الافراط في تقريب الموالي قائلا :

(•• انك قد صنعت من ذلك مالافرطت فيه ، قد وليتهم امورك كلها وخصصتهم في ليلك ونهارك ولا امن تغيير قلوب جندك وقوادك من اهل خراسان) فاجابه المهدي :

(ان الموالي يستحقون ذلك وليس احد يجتمع لي فيه ان اجلس للعامة فادعو به فارفعه حتى تحك ركبته ركبتي ثم يقوم من ذلك المجلس فأستكفيه سياسة دابتي فيكفيها لايرفع نفسه عن ذلك الا هؤلاء فانهم لايتعاظهم ذلك • ولو اردت هذا من غيرهم لقال : ابن دولتك والمتقدم في دعوتك وابن من سبق الى بيعتك لا ادفعه عن ذلك)

وكان المنصور قد اوصى ابنه ان يقرب الموالي قائلا :

(وقربهم واستكثر منهم فانهم مادتك لشدة ان نزلت بك[19]) •

ولابد لنا ان نقول بان موالي البلاط ككتلة اجتماعية لاتعني الفرس بل كانت خليط من العرب والفرس وغيرهم وكان بينهم نسبة كبيرة من العبيد المحررين من مختلف الاجناس ولعل ميزة هذه الكتلة المهمة هو ارتباطها بالولاء للخليفة العباسي والاخلاص للدولة

العباسية الذي تضعه فوق كل اعتبار اخر عنصريا كان ام اقليميا ام غيرهما[٣٠] • ان الثقة الكبيرة التي خصها المهدي بمواليه هي التي تفسر الاجراء المهم الذي اتخذه هذا الخليفة حين اناب مولاه وحاجبه والمسؤول عن (ديوان الرسائل) الربيع بن يونس في بغداد لما قرر السفر سنة ١٦٨ هـ ـ سنة ٧٨٥م الى جرجان لاقناع ابنه الهادي بالتنازل عن ولاية العهد الى هارون الرشيد[٢١] ان انابه الربيع عن الخليفة في بغداد كانت سابقة مهمة جدا ليس لها مثيل في تاريخ العباسيين قبل عهد المهدي وهي تدل على اهمية كتلة الموالي من جهة وتعاظم نفوذ الربيع من جهة اخرى •

وحين علم الربيع بن يونس بموت المهدي بادر الى اخذ البيعة للهادي وهذا الاجراء يدل على بعد نظر سياسي اضافة الى انه اخمد تمردا عسكريا قام به الجند في بغداد بتحريض من الخيزران التي كانت تفضل ابنها هارون على الهادي • ولكن الاخبار التي وصلت الخليفة الجديد وهو لايزال يجد السير على (دواب البريد) الى بغداد في غير صالح الربيع ولذلك نلاحظ بأن الهادي يرسل من يهدد الربيع ويقصيه عن وظيفته ويحل يحيى البرمكي محله[٢٢] •

ولكن الربيع استطاع ان يعيد ثقة الخليفة الجديد ، فقد ارسل ابنه الفضل لاستقباله مصحوبا بالهدايا الثمينة ولم يمض وقت طويل حتى تقلد الربيع(وزارته (وزارةالهادي) وتدبيراموره وما كان عمر بن بزيع يتولاه من دواوين الازمة)[٢٣]

ولكن الهادي مالبث ان (صرف الربيع عن الوزارة •• واقره على ديوان الازمة) ، وفي رواية للمسعودي[٢٤] انه تقلد الخاتم كذلك • ورغم ان العديد من الاشخاص تمتعوا بنفوذ سياسيواداري خلال عهد الهادي الا انهم لم يكونوا ، على مايبدو ، بنفوذ الربيع •

ولكن الهادي الذي وصف بانه (متيقظا غيورا ••• شديد

البطش جريء القلب[٢٥] قرر التخلص من حيث تشير روايات عديدة[٢٦] الى دور هذه الخليفة في موت الربيع بن يونس المفاجيء والذي يشبه الغموض . ومهما كانت اسباب التي دفعت الى قتل الربيع فانها تعكس الموءمرات التي كانت تحاك في البلاط بين المتنافسين على النفوذ والسلطة. وقد وقع الربيع ضحية لاحدى هذه الموامرات التي كثيرا ما اشترك هو في حبكها وتدبيرها في عهد المهدي العباسي .

الفضل يخلف والده :

ان الهادي الذي تخلص من الربيع بن يونس ، قلد ابنه الفضل الحجابة[٢٧] . واستمر الفضل حاجبا لهارون الرشيد حتـــى نكب البرامكة سنة ١٨٧هـ ــ سنة ٨٠٣م ، « فلما نكب البرامكة استوزره بعدهم ... ومازال الفضل بن الربيع على وزارته حتى مات الرشيد بطوس »[٢٨]

سلطة الفضل في عهد الرشيد :

يعد الفضل من الشخصيات ذات النفس العربي والولاء العراقي المقربة للبلاط العباسي . وكان يعد من كتلة يزيد بن مزيد الشيباني ومحمد بن فروخ الازدي وعبدالله بن خازم التميمي وعبدالملك بـــن صالح العباسي وعبدالله بن علاثة وابان بن صدقة وغيرهم[٢٩] . ولم يكن الفضل على صلات ودية م ع الخيزران ومن ورائها البرامكـــة . يقول الطبري ان الرشيد قال للفضل :

(يافضل ، وحق المهدي ، اني لاهم لك يوم توليت الخلافـــة بالشيء من التولية وغيرها متمنعني امي رحمها الله فاطيع امرها ... فخذ الخاتم من جعفر ن يحيى)[٣٠]

وفي رواية اخرى[٣١] : ان الفضل عرض على يحيى البرمكـــي عشر رقاع لبعض صحابته وطلب منه توقيعها فلم يفعل فنهض قائـــلا :

متى وعسى يثنى الزمـــان عنانـــه
بتصريف حال والزمـــان عثـــور

فتقضي لبانات وتشفي حسائف
وتحدث من بعد الامور امور

فسمعه يحيى البرمكي وارجعه ووقع عليها جميعا .

وكان الفضل بن الربيع هو الذي اوصل الى الرشيد نبأ اطلاق جعفر ابرمكي ليحيى العلوي من السجن كما وان اشارة اسحق الموصلي حين سأله الرشيد بما يتحدث الناس ؟ قال : يتحدثون بانك ستقبض على البرامكة وتولي الفضل بن الربيع[٣٢] ... كل هذه الروايات وغيرها تعكس المنافسة الحادة بين يحيى البرمكي والفضل بن الربيع وتدل على دور الفضل في سقوط البرامكة ونكبتهم على يد الرشيد . وقد شغل الفضل المكانة الاولى في البلاط . ولكن هل استطاع الفضل ان يحل لوحده محل البرامكة ؟؟ يبدو ان لقب وزير لم يمنح له ، كما وان المؤرخين لايطلقون عليه هذا اللقب الا نادرا، بل ان الطبري يشير بان الرشيد امره بأخذ الخاتم من جعفر البرمكي وفي رواية اخرى يقول :

« وولى الفضل نفقات العامة والخاصة وبادوريا والكوفة وهي خمسة طسايج فاقبلت حاله تنسي الى سنة سبع وثمانين ومائة »[٣٣]

اما وكيع فيرى ان الفضل كان مكلفا برعاية امور الرشيد (يقوم بامره ويوكله) وفي رأي الجهشياوي انه (اختص بخدمة الرشيد في بلاطه والاشراف على شؤونه الخاصة)[٣٤]

ومن ذلك نلاحظ ان الرشيد لم يجعل من الفضل بن الربيع خلفا للبرامكة في مسؤولياتهم الواسعة فقد كان يشاركه العديد من الشخصيات في الاشراف على الادارة والدواوين يقول الجهشياري :[٣٥]

« ولما شخص الرشيد خراسان لانتفاضها برافع بن الليث خلف محمد (الامين) ببغداد وجعل معه يحيى بن سليم الكاتب يكتب معه ويدبر اموره وشخص معه اسماعيل بن صبيح وكان يتقلد ديوان

الرسائل وديوان الصوافي وديوان السر • وشخص معه ايوب بن ابي سمير يعرض عليه وكان الفضل بن الربيع يعرض عليه ايضا • وكان يكتب للفضل عبدالله بن نعيم الكاتب • واشخص معه المأمون وعلى كتابته وامره كله الفضل بن سهل »

ولذلك نلاحظ بان المسعودي[٣٦] يضع اسماعيل بن صبيح الحراني في مرتبة الفضل بن الربيع في نفوذهما الاداري والسياسي في اواخر عهد الرشيد •

ولعل الملاحظة الجديرة بالذكر ان اختصاصات مايسمى الوزير عادت الى سابق عهدها الذي كانت عليه قبل حكم البرامكة فاقتصرت صلاحياته على النفقات والعرض والى ذلك يشير البرفسور سورديل حين يقول :

« ان الفضل لم تكن له وظائف رسمية اكثر اهمية من تلك التي كانت لوالده الربيع في نهاية خلافة المنصور ، ولم يكن يملك سلطات واسعة كالتي تمتع بها قبل بضع سنوات ، حاملا نفس المرتبة ، الوزير يحيى بن خالد »[٣٧]

ويظهر ان مسؤولية الفضل بن الربيع انحصرت بالدرجة الاولى في تدبير امور الرشيد في البلاط ففي رواية تاريخية :

« لما انقضى امر البرامكة ••• اختلت الامور وقصد الفضل بن الربيع لحفظ بخدمة الرشيد في حضرته واضاع ما وراء ذلك »[٣٨]

وفي رواية اخرى :

« وكان الرشيد حج بعد نكبة البرامكة والمدبر لامره الفضل بن الربيع »[٣٩] ثم ان اسمه يظهر على قطع النسيج ولعل ذلك يدل على انه كان مشرفا على ديوان الطراز[٤٠]

وهذا يؤكد ان منزلته عند الرشيد تشبه الى حد بعيد مرتبة والده عند المنصور فقد كان من خاصة الرشيد الذي كان يناديه بلقب

(ياعباسي)[41] وقد وزع الخليفة الاعمال الادارية الاخرى على مجموعة من الموظفين الجدد الذين لم يخدموا في زمن البرامكة . ويظهر ان الرشيد عاد فأشرف بنفسه على السكة التي كانت من اختصاصات جعفر البرمكي ذلك ان السندي بن شاهك (صاحب الشرطة) الذي تقلد السكة اضافة الى وظيفته لم يظهر اسمه على العملة النقدية وهذا يعني ، بطبيعة الحال ، انه لم يتمتع بالامتيازات التي كانت لجعفر البرمكي[42]

لقد انتقد المؤرخون ادارة الفضل بن الربيع وقارنوا الانحلال الذي حل بالادارة بالحالة في عهد البرامكة فقال عنه الجهشياري « بانه (الفضل) اضاع ماوراء بابه » ، وفي رواية اخرى ان امور البريد والاخبار باتت في حالة من الفوضى حتى :

« ان الرشيد توفي وعندهم (أي ديوان البريد) اربعة الاف خارطة لم تفض »[43] وفي اعتقادنا ان تدهور الادارة لايعزى الى الفضل بن الربيع الذي لم يكن مسؤولا عن كل الدواوين بل ان الرشيد ، كما اشرنا الى ذلك ، وزع المناصب الادارية بين عدد من الموظفين الجدد الذين ليس لهم خبرة ادارية كخبرة موظفي البرامكة الذين مارسوا العمل لفترة طويلة . فقد كان مسرور الخادم وثابت الخادم هما المسؤولان عن امور البريد والخرائط وليس الفضل بن الربيع . ويعزو البروفسور سورديل هذا الاضطراب الاداري الى تدخل الجيش في السياسة فيقول :

« ولاشك فان هذا الاهمال يعزى الى التدخل العسكري الذي اشتد فيما بعد خلال القرن التالي »[44]

وقد لاحظنا سابقا ان بوادر تدخل الجيش في السياسة بدأت حين تمرد جند بغداد بعد وفاة المهدي بتحريض من الملكة الخيزران واخمد فتنتهم الربيع بن يونس ، كما تمرد الجند ثانية بعد وفاة الهادي وهدئت الحركة بعد ان دفعت لهم السلطة مزيدا من العطاء .

نفوذ الفضل في اوائل عهد الامين :

صحب الفضل بن الربيع الخليفة هارون الرشيد في سفرته الاخيرة لقمع حركة رافع بن الليث في خراسان سنة ١٩٠هـ ـ سنة ٨٠٦م • وقد بقي الامين في بغداد يعينه في تدبير الامور يحيى بن سليم• اما المأمون فقد الح بطلب من الفضل بن سهل على مرافقة الرشيد في رحلته وقد اجابه الخليفة الى ذلك بعد تردد • على ان الرشيد توفي فجأة في رحلته هذه في مدينة طوس سنة ١٩٣هـ ـ سنة ٨٠٩م• وقام الفضل بنفس الدور الذي قام به والده من قبل حين توفي المنصور ، فقد اخذ الفضل البيعة من القادة ومن بني هاشم(٤٥) كان على الفضل بن الربيع ان يتخذ موقفا حاسما من الاحداث فقرر الاستجابة لتعليمات الخليفة الجديد الامين وكان هذا الاخير قد ارسل كتابا سريا الى الفضل مع بكر بن المعتز وفيه يأمره بارجاع الجند الى بغداد وقد جاء في الكتاب الذي يخاطب به صالح بن الرشيد :

« واضمم الى الميمون بن الميمون الفضل بن الربيع ولد امير المؤمنين رحمه الله وحرمه واهله وأمره بالمسير معهم فيمن معه من رابطته وجنده •

وفي فصل اخر منه : واياك ان تنفذ رأيا ، او تبن امرا الا برأي شيخك وثقة ابائك الفضل بن الربيع • واقر الخدم على ما في ايديهم من الاموال والخزائن والسلاح ولا تخرجن احدا منهم عن ضمن مايلي : الي ان تقدم علمي به • وان امرت لاهل عسكرك بعطاء او رزق فليكن الفضل بن الربيع المتولي لاعطائهم علي دفاتر يتخذها لنفسه بمحضر من اصحاب الدواوين فكان الفضل بن الربيع لم يزل يتقلد مثل ذلك عند مهمات الامور »(٤٦)

وبعد عودة الفضل بن الربيع الى بغداد اصبح تأثيره كبيرا على الامين ، ويتضح ذلك من روايات عديدة تلقبه بلقب (الوزير)(٤٧) واذا صدقنا رواية لمسعودي(٤٨) فمن لواضح انه حصل رسميا على هذا اللقب ، على ان الجهشياري يقول بأن الفضل (تقلد العرض)

ويظهر من قطعة من النسيج[٤٩] ان الفضل بن الربيع كان يتولى ادارة ديوان الطراز ويتمتع اضافة الى ذلك بشرف وضع اسمه على الطرز والانسجة والمعروف ان والده الربيع كان يتمتع بنفس الامتياز قبله كما اشرنا الى ذلك . اما الوضائف الاخرى فقد وزعها الخليفة بين عدد من الشخصيات الاخرى . من بينهم : العباس بن الفضل بن الربيع الذي اصبح حاجبا له ومشرفا على السكة دون ان يضرب اسمه عليها . وكان البرامكة كما اشرنا سابقا ، الوحيدون من بين وزراء العباسيين الاوائل الذين حصلوا على شرف ضرب اسمهم على السكة . وقد احتفظ اسماعيل بن صبيح الذي كان في عهد الرشيد على « ديوان الرسائل وديوان السر وديوان الضياع وديوان الصوافي » بمركزه القوي في عهد الامين حيث تشير رواية تاريخية الى انه دخل على الامين قائلا :[٥٠]

« يأمير المؤمنين هذا هو اليوم الذي وعدتني فيه ان تنظر في اعمال الخراج والضياع وجماعات العمال وقد اجتمعت علي اعمال منذ سنة ولم تنظر في شيء منها ولم تأمر فيها وفي هذا دخول خلل في الاعمال » .

وبعد ان وافق الامين في النظر في اعمال الدولة « حضر كتاب الدواوين باكثر ما في دواوينهم واقبل اسماعيل يقرأ عليهم ومحمد الامين يأمر وينهي » . هذه الروايات ، دون شك ، تظهر اسماعيل بن صبيح المسؤول الحقيقي عن الادارة والامور المالية .

من كل ذا لمكننا القول بان ادارة الدولة في اواخر عهد الرشيد وفي عهد الامين اصبحت موزعة بين عدد من المسؤولين دون ان يعطي الخليفة هذا الواجب الى شخص واحد يعينه . واذا كان الفضل بن الربيع قد ساعد على سقوط البرامكة بدافع من العداوة الشخصية والطموح الواسع فانه لم ينجح في ان يحل لوحده محلهم كما وان الخليفة نفسه لم يكن راغبا في خلق شخصية جديدة تحتكر ادارة الدولة كما فعل البرامكة ولهذا نلاحظ العديد من الموظفين الكفوئين يساهمون في ادارة الدولة اضافة الى الفضل بن الربيع .

الفضل بن الربيع والحرب الاهلية :

تصف رواية في تاريخ بغداد الفضل بن الربيع بانه « اتيه الناس واشدهم تعاظما » ، وقد ادرك الفضل ان من الايسر عليه ان يحكم ويتنفذ بوجود الامين في الخلافة فقرر الاستجابة لطلب الامين مخالفا بذلك رغبة الخليفة المتوفى الرشيد ، فأمر بالعودة الى بغداد ، ورفض استقبال الرسل الذين ارسلهم ولي العهد الثاني المأمون ولسان حاله يقول « لاادع ملكا حاضرا لاخر لاادري مايكون من امره » .

ويرى البروفسور كبريللي يشاركه في ذلك البروفسور سورديل بان الفضل بن الربيع كان اشد الرجال تأثيرا على الامين اثناء هذه المحنة ، وهو الذي دفع الخليفة الى انتهاك الاجراءات التي اتخذها الرشيد بخصوص حقوق وامتيازات ابنه الثاني المأمون .(٥١)

على ان الفضل هذا لم يكن الشخصية الوحيدة ذات الاثر في الاحداث المتلاحقة وما يؤيد ماذهبنا اليه ان المأمون بعد انتصاره عفى عنه ولم يعاقبه عقوبة صارمة . فان من ابرز مؤيدي خطط الامين ومحرضيه علي بن عيسى بن ماهان « شيخ الدعوة ونائب هذه الدولة » وبكر بن المعتمر . اما ابرز معارضيه فكان اسماعيل بن صبيح ويحيى بن سليم والسندي بن شاهك .

يقول الطبري « فلم يزل الفضل بن الربيع به (الامين) يصغر في عينيه شأن المأمون ويزين له خلعه » ويؤيد ذلك الجهشياري فيقول « فلما استوثق الامر لمحمد (الامين) زين له الفضل بن الربيع خلع المأمون وكان يخافه ان افضى الامر اليه » وفي رواية ان الفضل خاف من المأمون ان انتهت الخلافة اليه ان ينتقم منه لما بدر من تصرفه .. ويبدو ان الامين قد اعجبه هذا الرأي وبدء يخطط لخلع المأمون ولما حذره يحيى بن سليمان نهره مشيرا الى صواب رأي الفضل الذي نعته « الشيخ الموفق والوزير الناصح »(٥٢) .

ولايهمنا في هذا المجال التفصيل في احداث الحرب الاهلية ولكننا نقول بان الفضل اندفع ينفذ الاجراءات التالية وصولا الى

التخلص من المأمون وبطانته امثال الفضل بن سهل • فقد تم عـزل القاسم بن الرشيد عن الجزيرة والثغور ، ثم طلب الامين من المأمون المجيء الى بغداد للمشورة والرأي ولكن المأمون ادرك الخدعـة فلم يجب الطلب • واراد الامين ان يضم الري وبعض كور خراسان التي كانت ضمن سلطة المأمون حسب وصية الرشيد الى الاقاليم التابعـة الى بغداد فأنكر المأمون عليه ذلك • ولما طلب هذا الاخير زوجتـه ام عيسى وولديه للمجيء الى خراسان منعهم الامين من ذلك ، كمـا منع عنه ١٠٠ الف دينار كان ابوه قد اوصى بها من بيت لمال •

ثم جاءت اللحظة الحاسمة حين طلب الامين من المأمون ان يقدم موسى بن الامين عليه في ولاية العهد فرفض المأمون ذلك وشجعه على الصمود الفضل بن سهل وحين حاول العباس بن موسى بن عيسـى ان يقنعه انتهره الفضل بن سهل قائلا ان المأمون « بـين اخوانـه وشيعته » • وتأزمت الحالة حين خلع الامين المأمون عن ولاية العهد في صفر سنة ١٩٥ هـ ـ سنة ٨١٠م وولى ابنه موسى العهد وسـماه « الناطق بالحق » (٥٣) • وكان لابد من الحرب لحسم الامور وقـد وجه المأمون جيشا بقيادة طاهر بن الحسين وهرثمة بن اعين • ولـم يكن هذا الجيش فارسيا ، كما ان نسبة الترك كبيرة في هذا الجيش حيث تشير الروايات الى وجود فرق بخارية وخوارزمية ومـن مناطق اخرى من اقليم ماوراء النهر • اما جيش الامين فكـان اول الامـر بقيادة علي بن عيسى بن ماهان وكانت نسبة العرب ظاهرة فيـه • اما القوة الضاربة في هذا الجيش فكانت تتكون من (اهل بغداد) وهي كتلة عسكرية تضم جند اهل بغداد الذين يشار اليهم عادة باسـم (الابناء) او ابناء الدعـوة او ابنـاء الدولـة وابنـاء الشيعة او ابناء الجند الخراسانية او ابناء الشيعة الخراسانية • ولعل ذلك يدل على انهم ابناء اهل خراسان انصار الدعوة العباسية الذيـن حققـوا النصر لها ونقلوا الخلافة من الامويين الى العباسيين وهـؤلاء دون شك خليط من عـرب وعجم وكان قادتهم في عهـد الامين عبد الله بن حميد الطائي العربي ومما يدل على ارتباطهم بحاضرتهم الجديـدة

بغداد وولائهم للخلافة العباسية وتأثرهم بالبيئة العربية والثقافة العربية الغالبة على بغداد قول احد قادتهم على بن عيسى الانباوي يستحثهم على قتال جيش طاهر بن الحسين[٥٤] .

« يامعشر الابناء يابناء الملوك والفاف السيوف انهم العجم وليسوا باصحاب مطاولة ولا صبر فاصبروا لهم فداكم ابي وامي »

وقد انضم الى الامين فيما بعد ٢٠ الفا من البدو بقيادة احمد بن مزيد ، كما حاول عبدالملك بن صالح ان يزج اهل الشام في هذه الحرب وانخرط معه سنة ١٩٦هـ العديد من اجناد الشام ولكن اهل الشام سرعان ماخذلوا الامين وولوا الادبار حيث لم يورطوا انفسهم في حرب « ليس لهم فيها ناقة ولا جمل » وعلى حد قول احدهم[٥٥]:

« انكم لتعرفون مواقع سيوف اهل خراسان في رقابكم ... اعتزلوا الشر قبل ان يعظم .. » .

وقد توالت الهزائم التي منيت بها جيوش الامين كما ثار عليه الحسين بن علي بن ماهان واعتقله واخذ البيعة للمأمون ببغداد (سنة ١٩٦هـ رجب ـ سنة ٨١٢م) الا ان جند اهل بغداد تمكنوا من القضاء على التمرد واعادة الامين الى الخلافة بعد مرور اقل من يومين . واعلنت الحجاز خلع الامين والبيعة للمأمون في رجب من نفس السنة .

ان تأزم الموقف وتدهوره دفع الفضل بن الربيع الى الاختفاء من الانظار في نفس الشهر (رجب)[٥٦] ، في الوقت الذي سارع طاهر بن الحسين وهرثمة بن اعين من تقدمها حتى حاصرا بغداد وقد حاول الامين الهرب ثم عرض على هرثمة التسليم ولكنه قتل في حراقة بنهر دجلة .

على ان اهل بغداد لم يستكينوا للاحداث ولم يرضوا عن سياسة المأمون التي يوجهها آ لسهل ولم يقنعوا بالحسن بن سهل

واليا عليهم ، فخذلو المأمون واعلنوا بيعه ابراهيم بن المهدي • وهنا يظهر الفضل بن الربيع من مكمنه فيعينه ابراهيم حاجبا له • ولكن خلافة ابراهيم كانت قصيرة وبزوالها اختفى الفضل مرة ثانية وانسحب من المسرح السياسي • يقول الجهشياري :

« وتم استتارة (الفضل) الى ان غاب على بغداد محمد بن ابي خالد وحارب الحسن بن سهل وغلبه ماپينها وبين واسط فأستأمنه الفضل وظهر ولم يزل ظاهرا الى ان غلب ابراهيم بن المهدي على الامر ••• فرسمه لحجابته فكان فتيان آل الربيع يقومون بها ليرفع الفضل عنها • ثم اختل امر ابراهيم واتصلت الاخبار باجماع المأمون ورود العراق فعاد الفضل الى استتاره »(٥٧) •

ثم ظهر الفضل بن الربيع بعد استقرار المأمون في بغداد وهدوء الحالة وطلب العفو من الخليفة الجديد الذي اجابه الى ذلك ورد اليه داره التي كانت في شارع الميدان • على ان المأمون لم يعين الفضل في منصب رسمي في بلاطه(٥٨) ، وكانت وفاته سنة ٢٠٨هـ ــ سنة ٨٢٣م بعد حياة حافلة •

الخاتمة :

ان تطور الاحداث السياسية والظروف القلقة في نهاية عهد الرشيد دفعت بالفضل بن الربيع الى اتخاذ جانب الامين ولعل ذلك يعود الى ثقة الامين الكبيرة به كما تدل على ذلك الرسائل السرية التي ارسلها الامين اليه قبل موت الرشيد بقليل ولهذا ظن الفضل ان نفوذه وسلطانه سيكون اكبر في معيه الامين منه مع المأمون كما وانه ادرك بان وجود الفضل بن سهل ، صنيعة البرامكة سيحول دون تقربه الى المأمون وتأثيره عليه •

وفي اثناء الحرب الاهلية وحتى قبلها حاول بعض المؤرخين(٥٩) ان يظهروه بمظهر المناصر للعنصر العربي ضد النزعة الفارسية • على اننا لانعتقد بان الحرب الاهلية بين الامين والمأمون كانت بين الفرس والعرب • فالمعسكران المتنازعان يضمان شخصيات عربية وفارسية

وغيرها ويمكن ان نفسر هذه الحرب بانها نزاع بين العراق وخراسان حول الاستحواذ على المركز الاول بين اقاليم الدولة العباسيةغذتها نزعات شخصية وطموحات تخص العائلة العباسية وحاشيتها • ثم اننا لايمكن ان نبرأ الرشيد فان سوء تدبيره وتقسيمه الدولة الى مناطق نفوذ بين الامين والمأمون ادى الى هذه النتائج الوخيمة(٦٠) بعد ان اذكت نفوس البعض طموحات شخصية واذكت في نفوس اخرين نزعات انفصالية واقليمية •

وعلى ذلك فيمكننا القول بان موقف الفضل بن الربيع والاجراءات التي اتخذها لم تكن مدفوعة بدوافع عنصرية ولعل موقفه المعادي للبرامكة منذ عهد الرشيد حيث يقول ابن خلكان :

« كان الفضل بن الربيع يروم التشبه بهم ومعارضتهم ولم يكن له من المقدرة ما يدرك به اللحاق بهم فكان في نفسه احن وشحناء فسعى بهم »(٦١)

هذا الموقف هو الذي دفع بعض المؤرخين الى اعتباره مناصرا العرب ضد النزعة الفارسية وهو تخريج ليس له ما يسنده في مصادرنا التاريخية •

لقد نجح الفضل بن الربيع في الادارة ، كما استطاع ان يحصل على لقب « وزير » بصورة رسمية ، ولكنه كان بجانب خليفه ضعيفا قال هو (الربيع) عنه :

« الله اعدل من ان يرضى ان يكون مدبرا امور امة نبيّه محمد صلى الله عليه مَن هذه افعاله »(٦٢) •

واذا كان اختياره في صف الامين سوء تقدير منه دفعته اليه عوامل مختلفة ، فان الصدف السيئة هي التي جعلته يتولى الادارة بعد البرامكة ويكون الرجل الاول بين اقرانه في خلافة الرشيد والهادي مما جعل العديد من المؤرخين المعاصرين(٦٣) يعزون التدهور الاداري الى قلة كفاءته • وهذا غير صحيح لان المناصب

الادارية ، كما ذكرنا سابقا ، وزعت بين العديد من الاشخاص اولا ولتدهور الاوضاع السياسية قبل الحرب الاهلية واثنائها ثانيا • ورغم ان الفضل بن الربيع اختفى مرتين من المسرح السياسي اثناء تدهور الحالة لكي ينجو من مؤامرات اعدائه ومنافسيه ولكنه كان له انصاره واعوانه على الدوام مثل زهير بن المسيب(٦٤) الذي حفظ داره ورعى حرمه اثناء غيابه • ولعل احسن دليل على استمرار نفوذه وتأثيرة انه تقلد حالا (منصب الحاجب) لابراهيم بن المهدي في فترة خلافته القصيرة • وبعد ان عاد من اختفائه الثاني لم يمسه المأمون بسوء بل امر بتسليمه داره واسكانه فيها • ويعلق البروفسور سورديل على وزارة الفضل بن الربيع فيقول :

« وهذه الوزارة التي خلت من الانجازات وضعت نهاية للمحاولات التي يقوم بها الحجاب لكي يتولوا منصبا ليسوا اهلا له »

ومهما يكن من امر فان نهاية حياة الفضل السياسية كانت احسن بكثير من نهاية حياة والده الربيع •

الحواشـــي :

١ – راجع : انساب الاشراف (مخطوط) ورقة ٣١٧ . / الجهشياري ، الوزراء والكتاب ص١٢٥ فما بعد . ـالطبري تاريخ ، ٣ ، ص١١٢ . الاصفهاني ، الاغاني ، ص٦ ، ص٨٥ قارن الجاحظ ، البيان والتبين ، جـ٢ ص٢٦١ حيث يظهر بانه لقيط .

٢ – ابن الطقطقي ، الفخري ، ص١٤٢

٣ – الطبري ، تاريخ ، جـ٣ ص٤١٣ .اما طبعة دار المعارف جـ٨ ص٧٩

٤ – الاصفهاني ، الاغاني ، طبعة ساسي جـ ٦ ص ٨٢ .

٥ – البلاذري ، انساب ورقة ٣٢١ب . – قارن ابن الاثير ، الكامل جـ٥ ص٤٦٦

٦ – الجهشياري ، الوزراء ..، ص٨٩ (طبعة بغداد ١٩٣٨)

٧ – الطبري ، القسم ٣ ، ص٣٨ الطبعة الاوربية

٨ – الجهشياري ، ص٨٩ (طبعة بغداد) . – راجع كذلك ابن الطقطقي ، الفخري ص١٧٣

٩ ـ المسعودي ، التنبيه ، ص ٣٤٢ . الخطيب تاريخ بغداد ، جـ٨ ص٤١٤ إبن خلكان ، وفيات جـ٢ ص٥٥ـ٥٩
١٠ ـ الفخري ، ص١٤٠
١١ ـ الجومرد ، ابو جعفر المنصور ، بيروت ، ١٩٦٣ ، ص٥
١٢ ـ الجهشياري ، ص١٣٥
١٣ ـ الفخري ، ص١٤٣
١٤ ـ الطبري ، ٣ ص١٣١
١٥ ـ راجع فاروق عمر ، العباسيون الاوائل جـ ٢ ص ٢٣
١٦ ـ المصدر السابق ، القسم الثالث ، ص٣٨٨ـ٣٠٦
١٧ ـ راجع مقالنا يعقوب بن داود في مجلة كلية الاداب .
١٨ ـ الطبري ، طبعة دار المعارف جـ٨ ص١٧٥
١٩ ـ المصدر السابق (دار المعارف) جـ٨ ص١٠٣ (الطبعة الاوربية جـ٣ ص٤٤٤)
٢٠ ـ عن كتلة الموالي راجع العباسين الاوائل جـ٢ ص٥٢
٢١ ـ إلبلاذري ، انساب ورقة ٣٣٥أ . الطبري ، القسم الثالث، ص٥٤٥ ، ٥٢٠
٢٢ ـ المصدر السابق ، ٥٤٧ ـ انظر كذلك
S. MOSCATI, Le Califat d'al Hadi, S.O., 1946.
٢٣ ـ الجهشياري ، ص١٢٥ . الطبري ، ٣ ، ٥٤٨ . المسعودي مروج جـ٦ ص٢٦٥
٢٤ ـ المسعودي ، تنبيه ، ص٣٤٤
٢٥ ـ الفخري ، ص١٥٣
٢٦ ـ الطبري ٣ ، ٥٤٨ . المسعودي ، مروج ص٢٦٥
MOSCATI, op. cit p., 17.
٢٧ ـ الخطيب ، تاريخ بغداد ، جـ١١ ص١٤
٢٨ ـ الفخري ، ص١٧٣
٢٩ ـ الجومرد ، هارون الرشيد ، بيروت ١٩٥٦ ص ١١١
٣٦ ـ إلطبري ٣، ص٦٠٩
٣١ ـ ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، جـ١ ص٥٨٧
٣٢ـ الاصفهاني ، الاغاني ، ص جـ٥ ص١١٤
٣٣ ـ الطبري ، ٣ ص٦٠٩
٣٤ ـ وكيع ، اخبار القضاة ، جـ٢ ص١٥٠ . الجهشياري، ص٢٠٠ فما بعده ، ص٢١٤
٣٥ ـ الجهشياري ، ص٢١٤ـ٢١٥
٣٦ ـ المسعودي ، التنبيه ، ص٣٤٦

٣٧ ــ
D. Sourdel, Le Vizirat 'Abbaside, 1959, I, p. 186.

٣٨ ــ الجهشياري ، ص٢١٤

٣٩ ــ المصدر السابق ، ص٢١٨

٤٠ ــ راجــع Sourdel, op. cit., p. 187 (footnote 6)

٤١ ــ الجهشياري ، ص٢١٨

٤٢ ــ راجع : سورديل ، المصدر السابق ، ص١٨٦ ــ ١٨٧

٤٣ ــ الجهشياري ، ص٢١٤

٤٤ ــ سورديل ، المصدر السابق ، ص١٨٨

٤٥ ــ الطبري ، ٣ ، ٧٦٤ فما بعد

٤٣ ــ المصدر السابق ص٧٦٨ــ٧٧٠

٤٧ ــ ابن قتيبة ، المعارف ، ص١٣١ . اليعقوبي ، تاريخ ، جـ٢ ص٢٣٧

٤٨ ــ المسعودي ، التنبيه ، ص ٣٤٩

٤٩ ــ سورديل المصدر السابق ، ص ١٩١ (حاشية ٢)

٥٠ ــ الجهشياري ، ص٢٢٣ــ٢٢٤ ٢ــ٢٤٦ . عن اصل اسماعيل بن صبيح راجع المصدر السابق ص ٢٤٧ (طبعة بغداد ١٩٣٨)

٥١ــ F. Gabrieli, La successione di Harun ar-Rashid e la guerra R.S.O., XI, 1926, 345
سورديل ، المصدر السابق ، ص١٩١ .

٥٢ ــ الطبري ٧٧٦ــ٧٧٧ فما بعد . الجهشياري ، ص٢٣٧ ، ٢٣٩

٥٣ ــ عن هذه الاحداث راجع الطبري ، ٣ ص٧٧٦ــ٧٩٦ . عن هذه الاوضاع اشار الشاعر يوسف بن محمد قائلا (طبري ص٧٩٦ ــ جهشياري ٢٣٩) اضاع الخلافة غش الوزير وفسق الامير وجهل المشير وعلق ابو نؤاس في شعر له على الاوضاع فقال :

مثل ماذلت وضاعت بعد هارون الخلافة (الطبري ص٩٧٣)

٥٤ ــ الطبري ٣ ، ص٨٧٢٩

٥٥ ــ المصدر السابق ، ٨٤٤٢ــ٢٤٥

٥٦ ــ الجهشياري ص٢٤٧

٥٧ ــ

٥٨ ــ الاصفهاني ، الاغاني جـ٣ ص١٥٢ (طبعة ساسي) ــ الجهشياري ، ص٢٤٨

٥٩ ــ عبد الجبار الجومرد ، هارون الرشيد جـ١ ص١١١ . راجع كذلك E.I. (2), al-Fadlb. al-Rabi' (by Zetterstem)

٦٠- E. I. (2), Harun al-Rashid (by F. Omar)

٦١ - ابن خلكان ، وفيات ، جـ١ ص٤١٢ - ٤٤١٣ . كذلك جهشياري ص٢١٦ . الاغاني ، جـ١٧ ص٢٥-٢٦

٦٢ - راجع سورديل ، المصدر السابق ، ص١٨٣ . احمد شلبي ، التاريخ الاسلامي جـ ٣ ص٢٩٦ القاهرة .

٦٢ - الجهشياري ، ص٢٤٦

٦٤ - الجهشياري ص٢٤٨

٦٥ - سورديل ، المصدر السابق ص١٩٤